Black plate (7,1)

مقدمة الناشر

أخذتُ على عاتقي كناشر وباحث تحقيق هذا الكتاب «التوراة والتاريخ» للأب سهيل قاشا العراقيّ المنبت وسليل أقدم حضارة في التاريخ والمؤرّخ الذي عانى ويعاني مِمّا نشهده من فشل وخيبات وانهيارات بما لا يُعبّر عن عظمة وعراقة هذا التاريخ الذي يلقي بثقله على الحاضر فاضحًا عقم نضجه وسطحية ثقافته أكثر مما يُعبِّر عن عظمة الماضي. لأن ثقافة شعوب هذا الشرق لم تتعاطَ مع علم التاريخ بغرض الإستفادة من التجربة الإنسانية وتحقيق الذات المعرفية التي تعزّز الثقة بالهوية الحضارية من أجل الحفاظ على جذورها لتحقيق الإنفتاح المرتبط بالتاريخ لفهم العالم المعاصر. إنما اكتفت بتقديس التراث وتصنيمه.

منذ وعى الإنسان وجوده ككائنٍ عاقلٍ يتميّز بالإدراك والنطق، دأب على التفاعل مع محيطه، يتلمّس ويتحسّس ويكتشفُ ويبتكر جاهدًا للدخول إلى قلب ما هو كائن. إذ إن المحيط المادي المهيّج بالروح من منظومة أفلاك، ودورة فصول، وجنّات شجرٍ وثمرٍ ومياه، تستحّث وجدان هذا الإنسان ومواهبه. فها هو يترك المغارة والكهف إلى دفء الشمس وظلال الكوخ. ومن الكوخ إلى الكيان العائلي تحت سقف بيت وضمن جدرانٍ متّسقةٍ، متوازنة. ومن المنزل إلى بناء المقبرة والهيكل والقلاع والأسوار، إلى ترويض الوعر والصخر وتحويله تربةً خصبةً وأمنًا غذائيًا.

من الواضح أنه كلما أحاط هذا العقل الإنساني بمظاهر الوجود المادية والروحية، كلما فرضت حتمية الحداثة تطوّراتٍ في البيئة الإجتماعية والجغرافية والعمرانية، متلازمةً مع مستجدّات تنظيمية ورؤى ومفاهيم تتراكم بحكم حركية التاريخ. فتتشكّل العناصر العرقية للجماعات البشرية التي تُعرف هويّتها المعلنة من خلال رموزها وألحانها وعاداتها وأساطيرها وقيم تراثها. مِمّا يرسّخ الشعور العميق

Black plate (8,1)

بالإنتماء الوجودي للإنسان، وبأن هويّته الذاتيّة كفردٍ تتأثّر وجدانيًا بالهوية الذاتية الجماعية.

أما الفائدة من إعادة قراءة التاريخ فهي ضرورة تمليها علينا عصرنةٌ أو حداثةٌ تختلف عما سبقها من أدوار تطوّرٍ طبيعيّة، بسبب تعقيداتها، وخبث شعاراتها، وخلفيات استراتيجياتها. هذه الحداثة التي أوقعتنا في فخاخ عولمةٍ استعصى تفسيرها على الأكاديميين والباحثين وعلماء الإجتماع. سوى قناعةٍ مشتركة بأننا أمام تحدياتٍ كبيرة، فيما يتعلّق بالهوية وسمات الشخصية القومية، بما يعني انتزاع الإنسان من جذوره فيُعَرَّف عنه بالرقم وكأنّه مجرّد سلعة تخضع لمفاهيم الإستهلاك، أو مشاهدٍ متلقٍّ لاهثٍ وراء تقنيات صناعاتٍ سُوّقت تحت شعار المعرفة والتعارف وتبادل الثقافات. ولم تكن في حقيقتها سوى صدام حضارات وتنامي أصوليات، وفورة عدائيات، وفنون إرهاب.

قد نحتاج إلى مطوّلات للإحاطة بمفاهيم الحداثة والهوية التراثية، القضية المحورية في عالم اليوم. عالمٌ تعملقت فيه التقنيات واستراتيجيات التحكّم بمصادر الطاقة للتحكّم بمصائر الشعوب، بإسم الديمقراطية والحرية والتقدّم والرفاهية والسلام العالمي. مما يفرض عدم الإستسلام لهذا الإستعمار الذهني المادي، أو التيَّهان في جدلية التنظير وتفسير المسميّات. فجلّ ما نحتاجه وعيٌ شعبويٌّ لمكوّنات تراثه وما يكتنزه من تجربةٍ إنسانيةٍ عميقة، تعزّز ثقته بهويته والإعتماد على قدراته من دون عقدة الدّونية.

وإذا كانت الحداثة خروج الناس من التقليد إلى الإنفتاح على التطوّر يشترط التكامل بين الحداثة والهوية التراثية، لئلا تصبح الحداثة كتقليعات الموضة التي تأخذ بنماذج المظهر من دون الجوهر. حتى الديمقراطية أصبحت تقليعةً عالمية تنتشر انتشارًا رمزيًّا، وليس نموًّا مؤسّساتيًا، ووسيلةً وظيفيةً لإقامة حكمٍ حديث ينبع من احتياجاتٍ داخلية ناتجة عن التطوّر الموضوعي التنموي التاريخيّ. والذي يُقاس بالأجيال أحيانًا. كون الإنتقال من القديم إلى الحديث يحتاج إلى أطوارٍ ومراحل. فالمجتمعات الغربية احتاجت إلى عدة قرون لتصبح حديثة، في الوقت الذي كان الشرق أرض الحضارات وشمسها. إنّ مَن كان سليل هذه الحضارات أُمُّ مدنيات العالم لا يجوز أن يهمل أو يعبث بهذا المخزون العلمي والفلسفي والأدبي. أو

Black plate (9,1)

يجهل ويتجاهل القيمة الإنسانية لهذه الهوية التراثية التي تكاد تضيع، لا بل ضاعت في مجاهل العصبيات والأنانيات والشهوات على أشكالها. وفي مقدّمها السلطة والتسلّط على حساب شعوبٍ تُسْرق منها كلّ يوم كرامتها وتاريخها وثرواتها ومكانها ومكانتها على خريطة هذا الكوكب الأرضي.

ألا يثير بعض ما تقدّم البحث عمّا جرى ويجري، علّنا ندرك أين توقّف تاريخ هذه الأرض التي حملت كلّ البذور الحضارية عبر ما أنتجته من علمٍ وفنٍّ وفلسفاتٍ وأديان جُمعت أخيرًا في دائرة التوحيد للإله الواحد عسى الأخطاء التي لا مناص منها في مجتمعات الإنسان تكون مصدر عبرٍ مفيدةٍ للحاضر والمستقبل. فلا نقف حيالها عاجزين، يائسين، مُضلَّلين مستسلمين لغطرسة قوًى تعبث بالتاريخ والجغرافيا وتتلاعب بمصائر شعوبها وكأنها أحجار على رقعة الشطرنج. أو نعجة وديعة يجوز لتلك القطعان البشرية أن تمتصّ دمنا وتجوسَ دروبُنا كما تجوس البراري والأدغال قطعان الأضبع والذؤبان.

جُلّ ما قصدناه من تحقيق هذا الكتاب «التوراة والتاريخ» هو إعادة بناء الحقائق في رونقٍ من الصدق المتجرّد، المتعالي عن الهوى والتحامل لأنّ أسمى ما تتّصف به فلسفة التاريخ هي حضارةٌ يصقلها الصدق في الفهم والرؤيا، والأمانة في النقل لكي يحوّلها الرشد إلى عِبَرٍ يتمّ بها التصحيح والتحاشي، لا للتغنّي بالأمجاد، إنّما إحياءً للتاريخ في زمنٍ تبلبلت فيه المفاهيم وأصبحت الحاجة ملحّةً للإجابة على أسئلةٍ وتساؤلات. تفرض الوعي والإستدراك لمفاهيم وثقافة علم التاريخ لأن المؤرخ لا يؤلف تاريخًا أو يكتبه إنما «يقرأ تاريخًا» وهذا ما أثبته الباحث العلامة الأب سهيل قاشا عندما خرج عن التقليد في التدوين والسرد الى عالم السببية ورحاب العلم حيث عَمَدَ الى تفسير **لماذا** حَدَثَ وليس **ماذا** حَدَثَ مستندًا الى الوثائق والتواريخ للاستنباط والمقابلة ومحاولة فهم ما لا تقوله سطور المصادر التقليدية ليخلص الى التحليل التاريخي موضّحًا الدوافع والأسباب التي أفرزت تلك الحقائق.

جوزيف مفرّج